

بين الترادف والتوارد (*)

الأستاذ عبد العزيز بن عبد الله
عضو أكاديمية المملكة المغربية

أو عصر المحدثين والمولدين قد يعرقل هذا التطور. فلذلك اتسعت اختيارات علماء اللسان بشيء غير قليل من المرونة يتبلور في تحديد نطاق المفهوم — ولو عبرنا عنه بغير اللفظ الموضوع له — طبقا للسياق (contexte) بل إن قرائن هذا السياق تطورت هي نفسها من قرائن لسانية صرف إلى عناصر حية تصاحب اللفظ وتكيف المفهوم وقد تتسع لتشمل جوانب تاريخية (وهي السياق التاريخي) (historique) أو اجتماعية لسانية (socio-linguistique) ، تسجل اللهجات في تباينها تبعاً لاختلاف المجتمعات. فالسياق اللساني قد يبرز تطابق أو تباين كلمتين من خلال دلالتها الناتجة عن الإطار الزمني أو المكاني للاستعمال أي في نطاق ما تعود الناس تصوره عند سماع الكلمة أو وضع الكلمة داخل الجملة ، فالصفة إذا تقدمت الموصوف قد تفيد معنى زائداً .

أما السياق الاجتماعي اللساني فقد أصبح له اليوم أثر كبير بسبب تمازج اللغات واللهجات كنتيجة حتمية لامتزاج الشعوب والمبادلات المصطلحية بين الألسن المختلفة، في حين إن الكلمة الجاهلية لم تكن تتجاوز حدوداً ضيقة ربما اتسعت في العصر الأموي ثم في العصر العباسي، ولكن في نطاق مروي إسلامي غير شمولي وقد استحالت التنقل المصطلحي إلى امتداد وانيساط وتشعب واستشار بفضل المكانة التي أصبحت للغة الضاد منذ العصور الوسطى على الصعيد العلمي والحضاري وخاصة اليوم، حيث انضمت

إلى المفهوم التقني لأية كلمة، ينبثق من محوى هذه الكلمة نفسها دون اعتبار محيطها ككلمة أمس الدالة على اليوم الذي قبل يومك وكلمة البارحة التي تعبر عن أقرب ليلة مضت. غير أن الكلمات والأشياء قد تلتبس فيها أحياناً ببعض المفاهيم فنخلط على مستوى الألفاظ بين مدركين معنويين (مثل الخوف والرهبة) فنحدث آنذاك عن الترادف وهو الاشتراك في المعنى (synonyme) أو بين أشياء كالسيارة والشاحنة فيتعلق الأمر آنذاك بالتوارد أي توارد الأفكار والخواطر حول مفهومين متقاربين (analogie). نفي خصوص الترادف قد لا نجد لفظين يوصفان بأنهما مترادفان يؤيدان نفس المعنى دون أن يكون هذا الترادف جزئياً فقط، فكلمة أسد تعبر عن النوع في حين أن كلمة (ضرغام) مثلاً تبرز معنى زائداً لدى الأسد وهو الشدة وكذلك لفظة (هزير) التي ينطوي مبنائها على مفهوم إضافي في مادة (هزيرة) وهو اللفظ والضخامة، فهي صفات أو نوع من الشيات (nuances) أي اختلافات دقيقة بين أشياء تنتمي لنفس النصيلة : وهذه الشيات أشبه ما تكون بالدرج التي يمر منها اللون في سلم الفروق والتباين ، فالشاعر العربي إذا عبر في الجاهلية بكلمة خاصة عن مفهوم ، فإن هذا المفهوم لا يكون اعتباطياً بل ينطبق على مستوى خاص من المستويات التي تتدرج فيها المترادفات. على أن إدراك دقة اللفظ العربي في مفهومه الأصيل أصبح صعب المنال، إن لم نقل مستحيلاً، لاسيما إذا اعتبرنا أن اللفظ كائن حي يتطور، وأن تجميده في مستوى جاهلي

(*) راجع القسم الأول من معجم المتواردات في هذا العدد : (الجزء الثاني الخاص بالمعاجم) .

معطيات جديدة في حقول سياسية واقتصادية وحضارية أوسع. وهكذا فقد تختلف لفظتان «مترادفتان» الواحدة عن الأخرى معنى وسياتاً، في حين يضي المجتمع عليهما مفهوماً جديداً تحت تأثير مقتضيات خاصة ، وقد أصبح للاختيارات المجتمعية في بلدان عربية رائدة اثرها في تكييف الاضطلاع خارج إطار النواميس اللسانية المعهودة، وهذا هو بعض ما يسمى احيانا باللحن المشهور الذي يفضل على الصواب المهجور، ولذلك انكبت بعض الجامع — من حق — على تصويب صيغ شاذة رعاية للتأثيرات اللسانية الاجتماعية في الوطن العربي كلاً أو جزءاً قديماً أو حديثاً ولذلك أيضاً تحتم علينا المقتضيات المعاصرة ان نعجن المصطلح من جديد عجنًا يتلام مع متطلبات العصر وانسياباً مع مختلف التأثيرات الاجتماعية اللسانية ، فالحركة المعجبة المعاصرة يجب ان تظل حية معطاءً تكيف المفهوم في إطاره العلمي والتكنولوجي الحضاري الحديث، فالمرجع التي نستقي أو يجب ان نستقي منها الدلالات والالفاظ الدلالية معاً هي مجموع متكامل يضم الى جانب المفردة الاصلية اللون الجديد الذي يحدد محتوى المدرك كما يقلص فوضى الترادف السطحي في نطاق ثنائي يوفق بين أصالة الكلمة في جذرها أو تفاريعها وبين الهيكل الاجتماعي اللساني المتطور. فلأدب الحديث وللصحافة المعاصرة ولمختلف وسائل الاعلام ضلع في إقامة هذا الهيكل وتغذيته ولعل لتواؤم هذه العوامل مفعولاً حتمياً في ترسيخ تطابق المفرد ومفهومه وتبسيط الدلالات ورفع اللهجات « العامية » الى مستوى فصيح تتقارب فيه اللهجات الإثلية أو المحلية. فهذه الشمولية في كينونة المفردة العربية وحيويتها هي التي ستقذ لغة الهاد من التشتت بفضل انتقالها من شمولية محلية الى امتداد عارم على الصعيد العالمي، لاسيما وأن العربية لم تعد أداة تمير محصورة في الإطار العربي بل تجاوزته الى ابعاد أومية في شتى المجالات. وربما كان هناك في الواقع عامل آخر يكيف في الخفاء اختياراتنا وعطاءنا وهو العامل النفساني أي تأثير الوعي الباطني السليم —

الذي قلما تختلف ماهيته وروحه لدى الانسان الواعي مهما تكن جنسيته — ففي هذا المسار الطبيعي يمكن للمصطلح ان يعيش وأن يتوالد متواكباً مع مثيله الذي اثبتق واكتمل على نفس الوتيرة، وليس معنى هذا أنه يجب ان نهمل ولو كلمة واحدة من معجمنا الاصيل، وإنما يلزم ان نرخص ونرخص هذا التراث طبقاً لمقتضيات عصرنا دون إغفال ذلك التيار الفياض الذي جعل من لغة الضاد لغة الحضارة والعلم طوال ثمانية قرون عبر البحر الابيض المتوسط. وإذا كان سلفنا الصالح قد استطاع بلورة هذا العطاء فإن العاملين الاساسيين الذين اسهما في تكييف ذلك وتوجيهه هما: أولاً شعور هذا السلف بسمو أصالته ورهانة ذاتيته مما قلص أو استبعد كل احساس بالنقص أصبح يتجلى في تشبثنا بسطحيات بدل التغلغل في الأعماق، وقد استعمل السلف كلمة (فيزيقا) في شكلها الدخيل وكذلك كلمة (اريطاماتيكا) لأنهم كانوا منشغلين ببناء كيان العالم المعاصر (آنذاك) علمياً وتكنولوجياً وحضارياً. والعامل الثاني الذي ساعدهم على خلق هذه الشمولية من خلال لغة الضاد هو فكرهم الموسوعي مما حداً الإمام (ابن حزم) الى القول بأنه لم يكن يعرف في بلاد الأندلس رجلين اثنين بين علمائها لم يكونا يتقنان الى جانب العربية لغات أخرى أهمها الإغريقية واللاتينية. فهذا الطموح الفياض على الصعيد الانساني، هو وحده الكفيل بخلق لغة تتواكب مع المصور وتستجيب لمتطلبات الكينونة المستمرة الفياضة، التي ساعدت العلم على ان ينطلق اول ما انطلق من العربية ومن خلال العربية — كما يقول المستشرق الفرنسي (ماسينيون) — ويفتح لها آفاقاً واسعة لتكون إحدى لغات السلام والتخاطب بين الأمم. ففي هذا الإطار نوّد ان نجعل اليوم في متناول العرب وغير العرب ممن شغفهم جمال هذه اللغة ورواء ومنطقية بنيتها وبساطة هيكلها — جهازاً يساعدهم على إدراك الإمكانيات الشاسعة والابعاد المتناهية التي يوفرها للعربي المعاصر هذا المقوم الحضاري الأول الذي هو لغة الضاد .